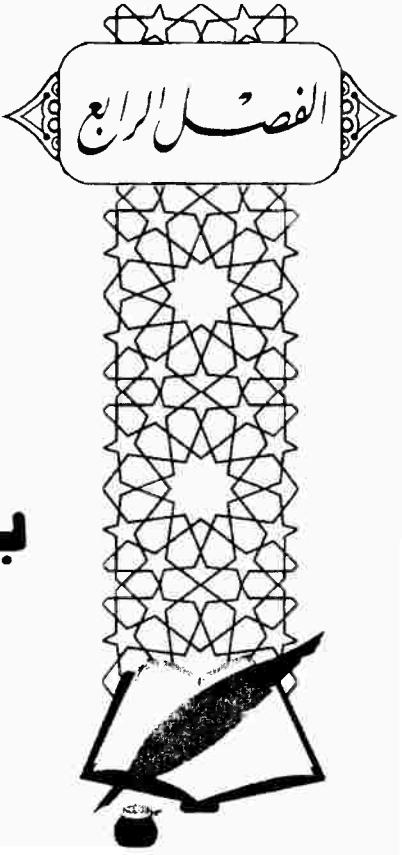

أماكن ارتبطت بأصحاب القصص

الفصل الرابع

أماكن ارتبطت بأصحاب القصص

القرآن الكريم كتاب الله إلى يوم القيامة فيه العشرات من القصص القرآنية التى رواها لنا رب العزة سبحانه وتعالى من أجل تحقيق العديد من الأهداف، ومن فضل الله ورحمته على عباده أنه بَيَّنَ لنا تفاصيل هذه القصص كما بَيَّنَ لنا كذلك الهدف من ذكرها فى هذا الكتاب العزيز.

هذه القصص المختلفة سواء المتعلق منها بالأنبياء أو بالرسل أو بالأمم السابقة أو بعباده الصالحين أو بعباده من الكافرين قد امتلأت كذلك بالأماكن المشهورة والتى ذكرها أيضاً كتاب الله الكريم. ولو أخذنا فى إحصاء هذه الآيات والسور الكريمات والتى تحدثت عن القصص التى أشارت إليها سوف نجدها كثيرة ومتنوعة، ومنها ما هو فى سورة القصص والنمل وفاطر والنساء ويوسف والتى تعتبر من أكبر سور القرآن الكريم التى ارتبطت بالقصص، وكذلك هناك من القصص الذى ورد فى آيات بينات أخرى وسور كريمة مثل الأعراف وهود وطه والأنعام وآل عمران.

ولعلنا نسوق هنا بعض من هذه الآيات الشريفة والمتعلقة بهذا الأمر المهم فى حياة البشر وحياة المسلمين لما فى ذلك من نفع عظيم.

يقول ربنا تعالى فى سورة يوسف عليه السلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الآية(٣).. والمقصود فى هذه الآية الكريمة هو رسولنا ﷺ، وفى سورة الأعراف الآية (١٠١) فى قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾.

من ناحية أخرى إذا ما قمنا بنفس المهمة وأردنا أن نقترب من موضوع هذه القصص وشخوصها.. فسوف نكتشف أن هناك العشرات من المواقف ومن الشخصيات ومن الأماكن التى ارتبطت بتلك القصص والتى سوف نتناولها نحن أيضاً بالتفصيل من خلال إلقاء الأضواء المبهرة على ما جاء بها من أماكن مشهورة،

وذلك استكمالاً لدورنا فوق هذه الأوراق والتى يقوم منهجنا فيها على بيان أشهر الأماكن المذكورة فى كتاب الله، وما جاء بشأنها من آيات وسور قرآنية، وما ارتبط بتلك الأماكن من أحداث مست حياة هذا النبى أو غيره أو لعبت دوراً عظيماً.

كما أننا ومن خلال هذا الفصل الجديد سوف نتناول الأماكن المشهورة والتى جاء ذكرها فى قصص بعض الشخصيات من غير الأنبياء أحياناً. ولعلنا نضرب مثالاً أو مثالين على ذلك، فهناك قصة أصحاب الأخدود..، ومن خلال هذه الأوراق سوف نبحث عن معنى الأخدود ومكانه وأثر هذه القصة فى حياة هؤلاء المؤمنين، كذلك أصحاب الكهف والرقيم.. وذلك من أجل التعرف على ماهية هذا الكهف ومكانه وما طرأ عليه حالياً من تغيرات. إضافة إلى ذلك هناك أصحاب الرس وأماكن أخرى مثل البروج والريع والصرح وأصحاب الأيكة وهكذا.

وإن ذلك ليحدث لإيماننا العميق بأهمية بيان دور هذه الأماكن وتأثيرها على أصحابها ونتائج الأحداث التى شهدتها من أجل أن تكون عبرة لنا على مر الزمان.. وذلك وفق ما أنبأنا به رب العالمين فى كتابه العزيز وفى قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (الآية ١٢٠ فى سورة هود)، وفى قوله تعالى لكل البشر: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (الآية ١١١ فى سورة يوسف).

وندعو الله جميعاً أن نكون من هؤلاء الذين وصفهم رب العالمين بأولى الألباب، وإن لم نكن من هؤلاء فإن الله تعالى يقول لنا أيضاً فى كتابه العزيز: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الآية ١٧٦ من سورة الأعراف).

إذن هناك آلاف العبر والنتائج الطيبة من تذكرنا لهذه القصص شريطة أن نعتبر ونفكر كى نستفيد!!.

** الأخدود.. الذى مات فيه المؤمنون:

ولعلنا نبدأ رحلتنا عبر أماكن هذا الفصل والتى ارتبطت بأشهر القصص المروية

فى كتاب الله بالحديث عن الأخدود وأصحابه من الذين قتلوا حرقاً لإيمانهم بالله العظيم، وهم فى ذلك لم يأبهوا بما أصابهم أو ما عرفوا بأنه سوف يصيبهم، فتلك الدنيا لا تساوى عندهم الكفر بالله العظيم.

وملخص قصة أصحاب الأخدود كما يقول الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى: أن جماعة من المؤمنين الصادقين، ثبتوا على إيمانهم وإخلاصهم العبادة لخالقهم دون غيره، فعذبهم أعداؤهم عذاباً شديداً حيث حفروا لهم حفرة فى الأرض وأضرموا فيها النار ثم ألقوا بالمؤمنين فيها.

ويضيف أن قصة أصحاب الأخدود جاءت فى سورة البروج وفى الآية (٤) فى قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾.

بل وأكثر من ذلك يقول لنا شيخ الجامع الأزهر أن الله تعالى قد أقسم بالسماء وباليوم الموعود وحق الشاهد والمشهود. لقد قتل أصحاب الأخدود، وطردوا من رحمة الله بسبب كفرهم وبغيهم.

والأخدود فى اللغة هو: الحفرة العظيمة المستطيلة فى الأرض كالخندق وجمعه أخاديد، ومنه الخد لمجارى الدموع والمخدة: لأن الخد يوضع عليها.

إذن أصحاب الأخدود هم قوم كافرون عذبوا المؤمنين من قومهم بالطريقة السابق الإشارة إليها، هؤلاء الذين توعدهم رب العالمين إزاء هذا الفعل الشنيع، هذا الوعيد الذى شمل طردهم من رحمة الله بعدما يحاسبوا يوم القيامة جزاءً ما اقترفته أيديهم من جراء فعلهم شديد القسوة.

وهناك من المؤرخين وكتاب السيرة النبوية الذين توسعوا فى حديثهم عن أصحاب الأخدود، ومن هؤلاء النيسابورى الذى أكد أن أصحاب الأخدود كانوا فى ثلاثة أماكن متفرقة وكلهم أقدموا على حرق المؤمنين الذين تمسكوا بدينهم وبإيمانهم بالله العزيز الحكيم.

وقال النيسابورى نقلاً عن مقاتل: إن أصحاب الأخاديد ثلاثة: واحد فى نجران باليمن وآخر بالشام وثالث بفارس، والذى بالشام فاسمه أنطياخوس الرومى وهو

الذى أحرق قوماً من المؤمنين، وأما الذى بفارس فهو بختنصر، وأما الذى فى اليمن فهو يوسف ذو نواس بن شرحبيل بن تبع بن بشرخ الحميرى.

وفى أغلب الأقوال أن المقصود بلفظ أصحاب الأخدود هم من أتباع ذو نواس الذى أحرق المؤمنين من أتباع عيسى عليه السلام، وكان يجمع هؤلاء فيخيرهم بين الارتداد عن دين الله أو الإلقاء فى نار الأخدود، وقيل كان يخيرهم ما بين الدخول فى دين اليهودية أو الحرق فى الأخدود، ويقال إنه أحرق من هؤلاء المؤمنين أثنى عشر ألفاً، بينما قال مقاتل: إنما قذف فى النار يومئذ سبعة وسبعين إنساناً.

وقال الكلبى: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا، فلما قذفوا المؤمنين فى النار خرجت النار إلى أعلى شفير الأخدود فأحرقتهم، وارتفعت النار فوقهم اثنى عشر ذراعاً ونجا ذو نواس، فسلط الله عليه أرياط الحبشى الذى هزمه فى اليمن فخرج هارباً واقتحم البحر فأغرقه الله فيه.

ولقد حاول العالم الراحل والمفكر القدير الدكتور محمد إبراهيم الفيومى إعطاء خلفية تاريخية عن هذا الحادث العظيم فى تاريخ المؤمنين، فقال عنه فى كتابه «تاريخ الفكر الدينى الجاهلى»: لقد تعاقب على حكم اليمن ملوك ليس لهم أعمال مهمة حتى جاء ذو نواس. الذى كان شديد التعصب على المسيحية وأراد اجتثاثها من اليمن، فطلب من النصارى ترك دينهم ولما رفضوا أحرقهم فى أخدود حفره لهم.

ويؤكد الدكتور الفيومى فيما كتبه: أن هناك الكثير من المؤرخين الذين تصوروا أن اضطهاد ذو نواس للنصرانية كان سبب تعصبه الدينى إذ إنه كان يدين باليهودية وهو متعصب لها، ولكن هناك أسباب أخرى لاضطهاده النصارى.. منها أن المسيحية فى الشرق كانت تحت بيزنطة والحبشة، وانتشارها يعنى ازدياد نفوذ هاتين الدولتين فى اليمن مما لا يرضى اليمنيين، بينما لم يكن يرافق انتشار الديانة اليهودية أى خطر سياسى لأنه لم تكن هناك دولة تحمى اليهود، وقيل كذلك بأن اليهود أنفسهم هم الذين حرضوا ذا نواس على اضطهاد النصارى.[1]

(١) تاريخ الفكر الدينى الجاهلى - د. محمد إبراهيم الفيومى.

** الكهف .. حيث هرب أولئك الفتية:

بدون الدخول فى تفاصيل الخلاف التاريخى حول من هم أصحاب الكهف نؤكد وفق ما أكده غيرنا من العلماء مثل الدكتور أحمد المجدوب أن القرآن الكريم هو كتاب الله الوحيد الذى أشار إلى قصة هؤلاء الفتية المؤمنين. والذين فروا بدينهم خوفاً من بطش الكافرين، فوقع لهم ما وقع داخل هذا الكهف العظيم،والذين بقوا فيه لأكثر من ثلاثمائة عام.

وفى ذلك يقول الدكتور المجدوب: إن قصة أهل الكهف أو قصة النيام السبعة لم يأت ذكرها من قريب أو بعيد فى المصادر اليهودية. وذلك عكس كل قصص القرآن الكريم التى نجد لها ما يقابلها فى قصص التوراة وغيرها من القصص الدينى التى وقعت أحداثها بعد نزول التوراة ثم أقحمه اليهود فى كتبهم.

وعندما نعود إلى كتاب الله لمعرفة عدد المرات التى ذُكر فيها ذلك الكهف وكذلك الآيات والسور التى ذُكر بها نكتشف وفق ما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم أن الكهف قد ذُكر فقط فى سورة الكهف وفى الآيات (١٠،١١،١٦،١٧،٢٥). والكهف هنا معناه الغار الواسع أو البيت المحفور فى الجبل. أما المراد به فى هذه الآية: الملجأ الذى اختفى فيه أصحاب الكهف.

ولسورة الكهف قصة يرويها لنا أصحاب السير .. رأينا من الضرورى الإشارة إليها فى عجالة لأهميتها أيضاً وذلك وفق ما رواه المفسرون من الذين قالوا: إن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة كى يسألوهم عن محمد وهل هو رسول أم لا؟! فقالوا لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول. سلوه: عن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول وماذا كان خبرهم؟ وسلوه: عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب ماذا كان خبره؟! وسلوه: عن الروح.

وبالفعل أقدمت قريش على سؤال محمد عليه الصلاة والسلام بما أشار عليهم اليهود، فأخبرهم عليه الصلاة والسلام بأنه سوف يخبرهم غداً ولم يستثن : أى لم

يقل إن شاء الله ، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله خمس عشرة ليلة لا يأتى إليه الوحى حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد اليوم، ومضى خمسة عشر يوماً قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه.

وقد أحزن ذلك رسول الله وشق عليه ما تكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله بسورة أهل الكهف، وفيها عتاب، وكذلك خبر الروح وما سألوه عن خبر أمر هؤلاء الفتية والرجل الطواف.

ليس هذا فقط، بل لقد اجتهد هؤلاء المفسرون من أجل تحديد شخصية هؤلاء الفتية فقالوا إنهم كانوا من أولاد عظماء المدينة وقد خرجوا عن قومهم بعدما تعاهدوا على عبادة الله الواحد الأحد، فوصلوا إلى هذا الكهف.. ووقع لهم ما وقع من أحداث جاءت كل تفاصيلها فى كتاب الله.

ويؤكد علماء الآثار فى الأردن وهى مقر هذا الكهف أن هؤلاء الفتية دخلوا إليه فى عام ١١٢م .. كما أنهم ظلوا بهذا الكهف ٣٠٠ عاماً وبالتالى فقد خرجوا منه عام ٤١٢م.. كما توصل هؤلاء العلماء إلى مكان ذلك الكهف وكذلك الجبل الذى احتواه والذى سوف نتناول الحديث عنه بالتفصيل كمكان مشهور فى القرآن الكريم فى موضع آخر حيث خصصنا هذه الفقرة لحديث الكهف دون غيره.

أما عن الكهف ذاته فقد توصلت إليه الاكتشافات الأثرية الحديثة، كما زاره أحد الصحفيين المصريين فى عام ١٩٨٣ وكتب عنه كلاماً كثيراً نشرته فى حينه جريدة اللواء الإسلامى، ومن قبله كتب عالم الآثار الأردنى تيسير ظبيان تقريراً مفصلاً عن هذا الكهف، قال فيه: إنه يقع على السفح الجنوبى للجبل، وهو يقع فى طريق منزوٍ عن المارة وبعيداً عن الطريق المعبد وعن طريق عمان - العقبة بنحو ثلاثة كيلومترات.

والكهف نفسه لا يمكن أن يراه المارة من الطريق ولا ينتبه إليه أحد إلا إذا قرب منه ووصل إليه . [1]

أما عن وصف الصحفى المصرى فقد ذكر فيه: عندما تصل إلى مكان ذلك

(١) أهل الكهف - محمد تيسير ظبيان.

الكهف وعلى بعد ثمانية أمتار منه، فإنك لا ترى شيئاً، وإذا قطعت هذه الأمتار الثمانية ودخلت إلى الكهف من بابه الحديدى فإنك ترى كل شىء، ترى المقابر المدفون فيها أهل الكهف، وقد فتحت دائرة الآثار الأردنية طاقة صغيرة فى إحدى هذه المقابر فوجدت بها عدة جماجم مما يجزم بأن هذه المقبرة تحوى رفات أكثر من شخص.

كما يقدم لنا وصفاً دقيقاً لشاهد رؤية عن هذا الكهف، قال فيه: وجدت مساحة مستوية تكاد تكون مربعة الشكل، فطولها لا يزيد عن المترين وعرضها أيضاً نفس المقاس والأرض منحوتة فى الصخر، وفى داخل الكهف نفسه قبو أشبه بالحجرة ترتفع عن الأرض، ومنحوته أيضاً فى الصخر ويضم هذا القبو ثلاث مقابر بنيت بالصخر.

أما عن مكان الفجوة المذكورة فى القرآن الكريم والخاصة بالكهف فاكتشف شاهد العيان أنها تقع أسفل الجدار الأيمن الداخلى وهى عبارة عن طاقة تبلغ مساحتها ٨٠سم ولا تستطيع النظر منها إلا إذا جلست على الأرض وأدخلت رأسك بها. هذه الفجوة ينفذ منها الضوء والهواء إلى داخل الكهف فتجعله صالحاً للحياة.

ومما رآه هذا الشاهد أيضاً فى رحلته إلى داخل الكهف جمجمة ذلك الكلب الذى كان يحرسهم وكأنه قد مات وهو جالس فى رقدته يحرس أصحابه. وهناك تفاصيل أخرى كثيرة لمن يريد التعرف عليها نرجوه الرجوع إلى كتابنا جبال الأنبياء.

** جبل الرقيم .. وفوق سفحه الكهف:

وبطبيعة الحال لا يستقيم الحديث عن أهل الكهف ومكانهم الذى عاشوا فيه كل هذه الفترة الطويلة من حياتهم، من دون التعرف على ذلك الجبل الذى حمل فوق صخوره هذا الكهف، والمعروف باسم جبل الرقيم وفق ما جاء فى كتاب الله العزيز.

وقد لاحظنا نحن كذلك أن هناك ترابطاً بين الجبل وبين هذا الكهف من خلال ما حكاه لنا رب العالمين فى كتابه العزيز وفى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (الآية ٩ من سورة الكهف).

ولقد أجمعت معظم المصادر التاريخية والأثرية أن هذا الجبل يقع فى مكان غير ظاهر للعيان وأنه يبعد عن الطريق العام أو الممهد والذى يصل بين مدن عدن ومادبا والكرك والعقبة مسافة ثلاثة كيلومترات. كما أنه يبعد عن الطريق الممهد سبعين متراً فقط.

ويحكى أصحاب كتب السيرة النبوية أن أصحاب رسولنا الكريم قد شاهدوا هذا الجبل وفق ما رواه الواقدى فى كتابه فتوح الشام حيث قال: روى الصحابى سعيد بن عامر الذى جعله عمر بن الخطاب على رأس جيش أنفذه إلى الشام، وقد روى هذا الصحابى ما شاهده حيث قال: أنه وفى أثناء سيره بالجيش ظن أنه ضل الطريق إلى وجهته، ولكنه ما لبث أن تبين طريقه عندما طلعت الشمس.

وقال أيضاً: فلماً طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادى وحققت تلك الأرض والجبل وإذا به جبل الرقيم، فلما رأيته عرفته فرفعت صوتى بالتكبير وكبر المسلمون ورأئى وقالوا: ما هذا الذى رأيته يا بن عامر، فقلت وصلنا الشام وهذا جبل الرقيم.

من ناحية أخرى يؤكد الدكتور أحمد المجدوب أن المقدسى، أشهر الجغرافيين العرب قد عرف مكان هذا الجبل وأشار إليه فى مؤلفاته. كما أن العديد من الجغرافيين المسلمين نقلوا عنه هذا الموقع الذى حدده بالضبط وعرف المسافة بينه وبين مدينة عمان. ويقال إن هذا الجبل حاليا قد دخل فى حرم الطريق الممهد.

بل وأكثر من ذلك فإن مكان هذا الجبل قد عرفه من قبل أيضاً الصحابى الجليل عبادة بن الصامت الذى أكد فى رواية له أنه مر على مغارة فيها أجسام بالية موجودة فى جبل الرقيم على مقربة من طريق القوافل بين الشام والحجاز.

ولقد سبق وذكرنا بأن هناك ارتباطاً كبيراً بين الجبل وبين الكهف ولذلك نلاحظ أن الكثير من الأثريين ومن المحققين ورجال التاريخ يتحدثون أحياناً عن الجبل وأحياناً أخرى عن الكهف.

ومن هؤلاء الدكتور أحمد المجدوب الذى أخرج للمكتبة العربية كتاباً تحت عنوان «أهل الكهف فى التوراة والإنجيل والقرآن» ومن بين ما أشار إليه هذا العالم الجليل تلك الكتابات التى وجدت على جدرانه وكذلك عن المسجد الذى أقيم عند الكهف تكريماً لأهله. ونراه يقول فى هذا السياق:

إن من أبرز ما تم الكشف عنه عقب الحفريات هو كوة أشبة بالنفق طولها أربعة أمتار، وترتفع عمودياً من أسفل الكهف إلى أعلاه وفوهتها فى أرض المسجد المقام فوق الكهف، ولقد عثر فيه على لوحة حجرية سدت فوهة الكوة.

وأضاف: أنه تبين من هذه الكتابات التى وجدت على جدران ذلك الكهف، وهى بالخط الكوفى أن مسجد الكهف الذى أقامه المسلمون جددت عمارته فى أزمنة مختلفة إحداها فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان فى عام ١١٧هـ والثانية فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون فى عهد الخليفة العبّاسى عام ٣٧٧هـ. والثالثة فى زمن قايتباى الملك الأشرف عام ٩٠١هـ أما الرابعة فكانت فى زمن الملك قنصوة الغورى عام ٩١٥ هـ.

ومن أعجب ما يروى بخصوص هذا الجبل أنه قد نبتت فوقه شجرة زيتون كان يأكل منها أصحاب الكهف، ويؤكد إمام مسجد الكهف أنه رأى هذه الشجرة بنفسه قبل أن يقتلعها الأهالى تبركاً بها، ولذلك فقد قام بزرع شجرة زيتون أخرى هى الموجودة حالياً وذلك بدلاً من الشجرة القديمة، ولدينا فى كتاباً «جبال الأنبياء» بعض صور خاصة لجبل الرقيم وكذلك لكهف أصحاب الرقيم المذكور فى كتاب الله.

** الرس .. بئر دفنوا فيه نبيهم حياً:

وكم من القصص التى رواها رب العالمين فى كتابه العزيز لها أهمية كبيرة فى حياتنا وحياة كل من يريد الآخرة... إذ بها العبر والعظات التى تعيد لنا الثقة والإيمان بالله دوماً.

ومن بين هذه القصص التى يجب أن نقف عندها طويلاً.. قصة أصحاب الرس..

هؤلاء القوم الكافرين الذين وقفوا إلى جانب الشيطان فيما فعلوه بأحد الأنبياء الصالحين والذى بعثه ربه إليهم لهدايتهم إلى الطريق المستقيم فما كان منهم إلا أن قتلوه حيًا داخل البئر أو الرس!!

تلك هى ملخص هذه القصة التى ذكرها لنا كتاب الله العزيز فى سورتين.. الأولى فى سورة الفرقان فى الآية(٣٨) وفى قوله تعالى:﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (والآية ١٢ فى سورة ق) فى قوله تعالى:﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾.

ونحن نلاحظ فى هاتين الآيتين أن الله تعالى قد أخبرنا بزمن هؤلاء الكافرين الذين عاشوا بعد نوح عليه السلام وأقوام عادو وثمود، هؤلاء القوم الذين كذبوا الرسل ووقفوا ضدهم، بل وعاقبوهم لأنهم جاءوا لدعوتهم إلى عبادة رب العالمين الواحد الأحد لا إله إلا هو، وكان ذلك العقاب شديداً، وكما يؤكد ذلك كل المفسرين.

ففى معجم ألفاظ القرآن الكريم أن الرس: هو الأخدود أو البئر، وأصحاب الرس هم أهل قرية كذبوا نبيهم ودفنوه فى البئر وهو حى !! فأهلكهم الله تعالى.

ليس ذلك فقط، بل لقد تناولت بعض كتب السيرة.. قصة حياة هؤلاء الكافرين وقصة ذلك الرس الذى احتوى جسد نبيهم الطاهر الكريم.

وكان بين هؤلاء الذين تحدثوا تفصيلاً عن الرس وأصحابه .. الإمام ابن كثير فى كتابه عن قصص الأنبياء. حيث قال : لقد ذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبى قاسم عبد الله بن عبد الله جرداد وغيره أن أصحاب الرس كانوا بحضور فبعث الله إليهم نبيًا يقال له حنظلة بن صفوان، فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده من الرس، فنزل الأحقاف وأهلك الله أصحاب ذلك الرس وانتشروا فى اليمن كلها وفشوا مع ذلك فى الأرض كلها. حتى جاء جبرون بن سعد بن عاد بن إرم بن نوح إلى دمشق وبنى مدينتها.

وروى ابن جرير عن ذلك أيضاً: قال ابن عبّاس: أصحاب الرس هم أهل قرية من

قرى ثمود، وفى قول آخر له نقله لنا وللتاريخ ابن أبى حاتم عن أبيه شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: الرس بئر أذربيجان، وقال قتادة الرس من قرى اليمامة.

بل وأكثر من ذلك توسع ابن كثير فى حديثه عن أصحاب الرس وتاريخهم فقال عن أبى بكر محمد بن الحسن النقاش: أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفى أراضيهم جميعاً، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان فى صورته، وقال: إنى لم أمت ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم، ففرحوا أشد الفرح، وأمُر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم بأنه لا يموت أبداً. فصدق به أكثرهم وافتتنوا به وعبدوه، فبعث الله فيهم نبياً فأخبرهم بأن هذا شيطان يخاطبهم من وراء حجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فقبضوا عليه وقتلوه وألقوه فى البئر ففار ماؤها وعطشوا بعد ذلك ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم وخربت ديارهم، ثم هلكوا عن آخرهم.

وأما الإمام النيسابورى فيحكى لنا قصة أخرى عن أصحاب ذلك الرس ذكرها على لسان على بن أبى طالب .. رضى الله عنه.. ومما قاله فى ذلك: أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شات درخت وكان يافث بن نوح قد غرسها على شفير عين يقال لها دوسان، كانت نبتت لنوح عليه السلام بعد الطوفان، وإنما سموا بأصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم فى الأرض، وذلك قبل سليمان بن داود عليهما السلام، وكان لهم اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق وبهم سمى ذلك النهر.

ويشير النيسابورى فيما رواه أيضًا إلى قصة ذلك الشيطان الذى تمثل لأهل الرس حتى عبدوه فجاءهم نبى من الله تعالى يرشدهم إلى طريق الصلاح وعبادة الله الواحد الأحد.. فلم يعجبهم ذلك وقد حفروا له بئراً ضيقة داخل هذه العين التى كانت تأتيهم بالماء العذب ورسوا فيها نبيهم وألقوا فيها صخرة عظيمة، فعاقبهم رب

العالمين حيث صارت أرضهم كحجر الكبريت تتوقد. وأظلتهم سحابة سوداء فألقت عليهم حجراً كالقبة يلتهب فأذاب أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار.

وهكذا قضى الله تعالى أمره بعقاب هؤلاء الذين قتلوا أحد أنبيائهم، لا لشىء إلا لأنه جاء يرشدهم إلى عبادة رب العالمين دون شريك له.

** البروج .. الحصون ومنازل الكواكب:

ومثلما لاحظنا فى القرآن الكريم عند حديثه عن البرزخ فإنه يشمل كذلك ما ارتبط بحياة الإنسان فوق الأرض وما خلقه الله فوقه حيث السموات العلى.

ولقد بين لنا كتاب الله ذلك فى عدة سور كريمات .. ففى سورة النساء .. ذكر البروج بمعنى الحصون فى قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ الآية (٧٨) فى سورة النساء . أما فيما يخص البروج فوقنا فقد جاء ذكرها فى ثلاث سور الأولى سورة الحجر وفى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ الآية (١٦) وكذلك فى سورة الفرقان الآية (٦١) .. ثم فى سورة البروج وفى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ الآية (١) .

والبروج مفردها برج وهو أحد الأماكن المشهورة التى جاء ذكرها فى كتاب الله.. وقد تناول الحديث عن تلك البروج وبتفاصيل كثيرة.. عدد المفسرين وكذلك من العلماء، وكل فيما ذهب وفق عن المعنى الذى يقصده. ففى التفسير الوسيط للقرآن الكريم والذى وضعه الدكتور محمد سيد طنطاوى قال: البروج : جمع برج وهى فى اللغة بمعنى القصور العالية الشامخة، وهذا هو المقصود بقوله تعالى:﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أى لو كنتم فى قصور عظيمة محصنة، كما يقصد بالبروج أيضاً المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ومداراتها الفلكية، وقال القرطبى قوله: هذا قسم الله تعالى وفي البروج أربعة أقوال: إحداها ذات النجوم، والثانى ذات القصور والثالث ذات الخلق الحسن أما الرابع: ذات المنازل وهى إثنا عشر منزلاً.

ولقد نزلت سورة البروج فى قصة أصحاب الأخدود الذين قتلوا المؤمنين فانتقم الله منهم أعظم انتقام.

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد مرة أخرى على أن كلمة البروج كمكان مشهور فى كتاب الله قد جاءت بمعنيين الأول القصور أو الحصون العالية والثانى: بمعنى منازل الكواكب.

ولدى الدكتور أحمد شوقى إبراهيم حديث آخر مختلف عن هذه البروج وقد ذكره لنا فى كتابه الجديد «فتح العليم فى تفسير القرآن الكريم»، ومما قاله فى هذا السياق: لقد أقسم الله تعالى بالبروج، والبروج جمع برج، وهو كل بناء مرتفع وظاهر للناظرين.

ويضيف: أن للمفسرين آراء كثيرة فى تفسير كلمة البروج، إلا أننا نرجح أنها بروج السماء، فهى بروج فى السماء على الاستعارة.

ولقد نزلت سورة البروج وما بها من عبر وعظات لتثبيت المسلمين المستضعفين الأوائل وتعينهم على أذى المشركين لهم فى مكة، وتذكرهم بما حدث لمن سبقهم فى الإيمان من الأذى والتعذيب على يد المشركين السابقين.[1]

وكما ذكرنا من قبل كان للعلماء آراء كثيرة فى كلمة البروج خاصة الذين ربطوا بينها وبين ما فى السماء فوقنا، ومن هؤلاء العلماء الدكتور محمد جمال الدين الفندى، الذى تحدث عن البروج فى كتابه المهم: «الله والكون» .. ومما أشار إليه فى هذا السياق قوله: البروج : حزام من مجموعات النجوم تزين السماء وتأخذ أشكالاً ثابتة المعالم لا تتغير بالنسبة لبعضها البعض نظراً لبعدها الهائل عنا، وتمر الأرض أمام هذا الحزام وتكمله مرة كل عام، كما تقع دائرة البروج فى مستوى فلك الأرض وهى تسبح من حول الشمس، وقد قسمت إلى اثنى عشر قسماً ومقدار كل قسم منها ٣٠ درجة تقع فيها البروج.

ففى ٢١ مارس الذى يمثل فلكيًا ابتداء الربيع، تكون الشمس فى أول نقطة ببرج

(١) فتح العليم في تفسير القرآن الكريم وبيان أوجه الإعجاز العلمى فيه اجزء الثلاثون جزء عم - د.أحمد شوقى إبراهيم . مصدر سابق.

الحمل، وعلى ذلك يقال إن الشمس سوف تدخل برج الحمل، وبعد مضى شهر تدخل الشمس برج الثور وهكذا.

ويضيف الدكتور الفندى: والبروج التى تحتوى على نجوم من القدر الأول هى : الثور - التوأمان - الأسد - العذراء - العقرب .

ونجوم التوأمان الرئيسة هى: رأس التوأم المؤخر ورأس التوأم المقدم، وهما متقاربان فى درجة اللمعان ولكن رأس التوأم المؤخر يقع ناحية الجنوب وهو من القدر الأول. (١)

وبخلاف ذلك وحين نعاود الحديث عن تلك البروج الموجودة فوق سطح الأرض سوف نلاحظ ارتباط الحديث عنها فى كتاب الله.. بمعظم القرى الظالمة وكبار الكافرين من الحاكم وغيرهم من الذين ظنوا أن حصونهم مانعة لهم من عذاب الله تعالى، إثر ما ارتكبته أيديهم من مظالم، ليس فقط ضد عباد الله الصالحين ، بل وضد إرادة رب العالمين لسلوكهم المعيب ضد إرادة رب العالمين وعدم إيمانهم بواحدانيته، مما استوجب عذابهم سواء وهم بداخل بروجهم أو حصونهم المنيعة أو بتدمير تلك الحصون وتخريبها. حتى باتت أثر بعد عين.

** حاضرة البحر.. قرية الحيتان:

رغم أن كتاب الله العظيم قد تحدث بالتفصيل عن بنى إسرائيل سواء من قبل ظهور نبى الله موسى أو من بعده، وحتى انتقالهم إلى الأرض المقدسة، إلا أن هناك سور وآيات أخرى فى كتاب الله قد تعقبت أفعال بعض هؤلاء القوم الذين عتوا عن عبادة ربهم، ومن بين هؤلاء، القوم الذين كانت قريتهم حاضرة البحر.

ولقد أخذ الله تعالى عليهم عهداً بأن يتفرغوا لعبادته تعالى خاصة فى يوم السبت، ومن أجل ذلك حرم عليهم الصيد فى ذلك اليوم اختباراً لهم، والله أعلم بما فى صدورهم.

(١) الله والكون - د. محمد جمال الدين الفندى.

وكما يقول الإمام الدكتور محمد سيد طنطاوى فقد أرسل الله إليهم الحيتان فى يوم السبت دون غيره فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم، قريبة الاصطياد، من دون غيره من أيام الأسبوع!!.

إنها قصة عجيبة لقوم لم يصمدوا لاختبار رب العالمين الذى أمرهم بألا يصطادوا فى يوم سبتهم وأن يتفرغوا فيه فقط لعبادة الله الكريم.

وحين نعود للحديث عن حاضرة البحر.. تلك القرية التى نسميها فى أيامنا هذه بقرية الصيد أو قرية الصيادين، وجهور المفسرين قد توصلوا إلى أن هذه القرية هى قرية أيلة والتى تقع بين مدين والطور، وقيل أيضاً هى قرية طبرية وقيل هى مدين.

ولقد أشار الله تعالي إلى هذه القرية فى قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الآية ١٦٣).

كما ذكر بعض المفسرين أن هذه القرية ربما كانت ميناء صغيراً على البحر المتوسط أو البحر الأحمر لارتباط هذين البحرين بما أشار إليه القرآن الكريم من أنها حيتان.

وهؤلاء القوم كما أكد ذلك الدكتور محمد سيد طنطاوى قد أرادوا أن يحتالوا على رب العالمين حين سال لعاب شهواتهم ومطامعهم، ولذلك فكروا فى حيلة لاصطياد تلك الحيتان خاصة فى ذلك اليوم الذى أمرهم رب العزة عن التوقف فيه عن الصيد - فقالوا: لا مانع من أن نحفر إلى جانب ا لبحر الذى يعيشون بجواره والذى يزخر بالأسماك من كل الأنواع أحواضاً تنساب إليها المياه و معها الأسماك، ثم نترك هذه الأسماك محبوسة فى الأحواض فى يوم السبت ثم نصطادها يوم غير السبت!!. وبذلك يجمعون بين احترام ما عُهد إليهم من رب العالمين وبين ما تشتهيه أنفسهم من الحصول على هذه الحيتان!!.

ولقد نصحهم الناصحون بأن عملهم هذا يعد احتيالاً على الله وعلى محارم الله وأن حبس هذه الحيتان فى الأحواض هو صيد تساويها فى المعنى، وذلك يعد فسوقاً

واحتيالاً وخروجاً على عهد الله والذى قطعوه على أنفسهم، وكان جزاء هذا الاحتيال من جانبهم أن انتقم الله منهم ومسخهم قردة كى يكونوا عبرة لغيرهم من الأقوام.

وروى الإمام القرطبى فى تفسير هذه الآية: بأن هذه القصة قد وقعت زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم بذلك فقال لهم: إنما نهيتكم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحيتان، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج فيأخذونها يوم الأحد!!. وهو نفس التفسير الذى أشار إليه من قبل الدكتور محمد سيد طنطاوى: ثم أضاف القرطبى فى تفسيره لمعنى حاضرة البحر فقال: إنها قريبة منه ومشرفة على شاطئه!

هذا المعنى يؤيد لما ذهبنا إليه من قبل من أنها كانت قرية صيد أو ميناء صغير يؤدى نفس الغرض.

** الصرح .. بين فرعون وسليمان :

جاء فى القرآن الكريم حديث طيب عن الصرح بمعنين وفى موقعين مختلفين، الأول جاء فى قصة سليمان عليه السلام وتلك المرأة التى أحضرها بعرشها من اليمن. والثانى جاء فى قصة فرعون وموسى عليه السلام.

وفى كل من هذين الموضعين أدت كلمة الصرح كمكان مشهور فى كتاب الله أيضًا معنين مختلفين .. ففى قصة فرعون وموسى عليه السلام .. حيث قال الله تعالى: ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ الآية (٣٨) فى سورة القصص وباللفظ فى سورة غافر الآية (٣٦) وهى هنا تعنى البناء المرتفع جداً أو كما ذكر معجم ألفاظ القرآن الكريم بأنها تعنى القصر العالى.

أما فى قصة سليمان عليه السلام فقد ذكرها الله تعالى فى موضعين أيضاً وفى آية واحدة فى سورة النمل حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ وفى قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ (الآية ٤٤) .

***

ونبدأ بحديث الصرح فى قصة سليمان عليه السلام وفق الترتيب الزمنى الذى وضعه رب العالمين وما جاء فى قصص الأنبياء بشأنه.

هذا الصرح الذى أشير إليه حين جاءت ملكة سبأ إلى مملكة سليمان بعدما أحضرها إليه ذلك الذى كان عنده علم من الكتاب والذى أمده الله تعالى بهذا العلم.

وتقول تفاصيل هذه القصة أن سليمان عليه السلام قال لجنوده بعد أن استقر عنده عرش بلقيس، غيروا لهذه الملكة عرشها كأن تجعلوا مؤخرته فى مقدمته وأعلاه إلى أسفله، وبالفعل نفذوا ما أراد سليمان عليه السلام. ولما حضرت أمامه أمرها بأن تدخل إلى الصرح وهو ذلك القصر الذى أعده سليمان عليه السلام كى تنزل به .

ويقول العديد من المفسرين أن الصرح كمكان مشهور فى كتاب الله يطلق كذلك على كل بناء مرتفع، أما صرح هذه الملكة فقد بناه سليمان عليه السلام وجعل بلاطه من زجاج نقى صاف كالبللور، حيث يرى الناظر ما يجرى تحته من ماء، لذلك أخبرنا القرآن الكريم بأن هذه الملكة حين دخلت هذا الصرح كشفت عن ساقيها ظنا منها أن ملابسها يمكن أن تبتل من الماء الذى كان يوجد تحت هذا الصرح، وقد صحح لها سليمان عليه السلام حقيقة هذا الصرح بقوله: ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ بمعنى أملس وناعم.

إذن هذا الصرح الذى بناه سليمان عليه السلام والذى شارك فيه جنوده من الجن و الإنس .. كان بالفعل وكما أكدت ذلك كل قصص الأنبياء قصراً مشيداً أقيم فى فخامة غير مسبوقة حيث احتوى على الزجاج الأملس والبلاط النقى المضىء.

والإمام النيسابورى فيما رواه يؤكد أن الشياطين الذين سخرهم رب العالمين لسليمان عليه السلام هم الذين بنوا هذا الصرح، وهو قصر من زجاج كأنه الماء بياضاً . كما أجروا من تحته الماء وألقوا فيه السمك.

ولو أردنا تحديد مكان هذا الصرح أو هذا القصر كان لا بد لنا أن نتذكر ونؤكد أنه كان ضمن مملكة سليمان عليه السلام والتى أقامها فى أرض الشام.

أما فيما يخص صرح فرعون والذى طلب من جنوده ورئيس كهنته هامان إقامته فواضح من سياق القصة أن هذا الفرعون قد طلب إقامة مكان مرتفع وشاهق حتى يستخدمه فى بلوغ الأسباب التى تحدث عنها موسى عليه السلام. أو لكى يطلع على إله موسى كما ذكر ذلك القرآن الكريم !!.

وهذا ما أكده الدكتور رشدى البدراوى حين قال: إن فرعون ادعى أنه إله، وإمعاناً فى تكذيب موسى والاستهزاء به طلب من وزيره أن يبنى له برجاً عالياً من الطوب المحروق الآجر ليصعد عليه فى السماء كى يرى إله موسى!!.

ويضيف: أن كل الأماكن حتى عصر هذا الفرعون كانت كلها تقام من الطوب اللبن أو الحجارة، وذلك لا توجد آثار قد بنيت بالطوب الأحمر قبل عصر رمسيس.

ويعتبر العديد من المؤرخين أن رمسيس أو فرعون موسى هو أول من استخدم الطوب الأحمر فى البناء المرتفع، وهناك بعض المفسرين الذين قالوا إن هذا الصرح لم يتم بناؤه من أصله، وقيل كذلك أن وزيره هامان هو الذى بنى له هذا البرج المرتفع والذى صعد فوقه ثم نزل يقول للناس: «أنه لم يجد إله موسى الذى يتقول به إذن فهو من الكاذبين»!!

وروى عن السدى : أنه لما بنى هذا الصرح ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء، فرد إليه وهو مفرج دماً، فقال: قتلت إله موسى!!!!

** عين القطر: بداية عصر التعدين:

هناك العديد من المؤرخين ومن المفسرين الذين يعتبرون الحديث عن عين القطر والتى جاء ذكرها فى كتاب الله فى قصة سليمان عليه السلام، إنما كانت تعنى بداية عصر التعدين بعدما أنزل الله الحديد من السماء..

وعين القطر وفق معظم التفسيرات تعنى منجم النحاس الذى خلقه رب العالمين لهذا النبى الكريم، وذلك بعد أن علَّم رب العالمين أبيه داود عليه السلام صناعة الدروع، وبالتالى تعلمها سليمان عليه السلام هو الآخر.

وإرشاد سليمان عليه السلام إلى عين أو منجم القطر أو النحاس إنما كان من نعمة الله على هذا النبى الكريم إضافة إلى ما أنعم الله عليه من نعم كثيرة ذكرها أيضاً القرآن الكريم وذلك فى سورة سبأ وفى قوله تعالى: ﴿لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ...﴾ الآية (١٢) فى سورة سبأ.

ليس هذا فقط بل أن الله تعالى قد ألان لهذا النبى الكريم الحديد بحيث أصبح على حد قول الدكتور محمد سيد طنطاوى مع صلابته وقوته كالعجين فى يده، يشكله كيف يشاء، ومن غير أن يدخله فى نار أو يطرقه بمطرقة.

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا السياق هو: لماذا أسال الله تعالى لهذا النبى عين القطر أو منجم النحاس وكذلك ألان له الحديد؟!

إن هناك العديد من المفسرين الذين حاولوا الإجابة على هذا السؤال المهم، فقالوا إن الله تعالى علم بأن هذا النبى الكريم كان فى حاجة إلى منشآت كثيرة شيدها فى أورشليم وغيرها من المدن، وكذلك ما كان من أمر أسطوله واحتياجه الشديد لهذا النوع من التعدين.

ويؤكد الدكتور رشدى البدراوى أن هذه الإنشاءات كانت قريبة من بلدة «عصيون جابر» فى الطرف الشمالى لخليج العقبة وهى التى تم فيها اكتشاف كل من النحاس والحديد، كما يُعتقد أنها كانت مكان تل الخليفة الموجود على بعد ٥٠٠ قدم من ساحل البحر الأحمر غرب ميناء إيلات الإسرائيلى.

ويضيف: أن ما يؤكد ذلك أن بعثتين أمريكيتين قامتا باكتشافات فى هذه المنطقة وأثبتا أن الصخور فى هذه المنطقة غنية بالحديد والنحاس، بل وفى كل مكان على طول وادى عربة، وهناك وجدوا ممرات محفورة فى الصخر من كل ما تبقى من مناجم مهجورة.

كما عثروا على قوالب طوب هى بقايا حوائط مبانى هذه المدينة القديمة، وقد

أعتبرا أن هذه البقايا ترجع إلى ألف عام ق.م فى الوقت الذى كان فيه سليمان يحكم إسرائيل، كما أكدت هذه الاكتشافات وجود قوالب لصب النحاس المنصهر، كما وجدوا بناء ثبت أنه كان بمثابة الفرن الرئيسى لصهر النحاس، ولا يزال هذا المعدن المهم يلعب دوراً كبيراً فى حياتنا الاقتصادية والصناعية، حيث اصبح يدخل فى صناعات كثيرة ثقيلة وخفيفة.

** المحاريب .. وزكريا ومريم عليهم السلام:

كما نعرف لغويا فإن المحاريب مفردها محراب، وقد جاء ذكر هذه المحاريب أو المحراب فى العديد من سور القرآن الكريم وآياته الشريفة. كما أوضحت لنا هذه السور مدى ارتباط هذه المحاريب بالعديد من أنبياء الله. وكذلك بدين الإسلام. وكان من أوائل الأنبياء الذين ارتبطوا بالمحاريب أو المحراب هو سليمان عليه السلام. وفق ما جاء فى كتاب الله العزيز وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ الآية (١٣) فى سورة سبأ.

وفى هذه الآية نعرف أن الله تعالى قد سخر الجان لهذا النبى الكريم من أجل أن يصنعوا له هذه المحاريب التى قيل إنها تعنى الأثاث اللازم لبيته.. وقال آخرون: إنما المقصود هو أماكن العبادة فى أيام سليمان عليه السلام.

ويحدثنا الشيخ الإمام الدكتور محمد سيد طنطاوى عما جاء فى هذه الآية بشأن المحاريب فيقول: إن معناها هو كل مكان مرتفع. كما يطلق كذلك على المكان الذى يقف فيه الإمام فى المسجد، وأيضاً على الغرفة التى يصعد إليها. وهنا لا بد من الإشارة إلى ارتباط المحراب بالدين الإسلامى وما هو موجود حالياً داخل مساجدنا حيث يرى المؤرخون بأن المحراب قد استحدث فى المساجد، وبالتالى لم يكن موجوداً من قبل كدليل على القبلة.

وهناك من يرى من الفقهاء أنهم كرهوا الوقوف داخل المحراب وبالتالى نرى الأئمة يتأخرون عنه بأقدام قليلة. كذلك ارتبط المحراب بقصة زكريا عليه السلام والسيدة العذراء مريم والذى جاء بشأنه كلمات فى كتاب الله .. وفى قوله تعالى:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وجد عندها رِزْقًا﴾ الآية (٣٧) فى سورة آل عمران. وفى قوله تعالى: ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ الآية (١١) فى سورة مريم.

ويؤكد العديد من المفسرين أن المقصود بكلمة المحراب كأحد أماكن العبادة قد جاء فى قصة زكريا عليه السلام ومريم أم المسيح عليه السلام.. بدليل قوله تعالى: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب﴾ وقوله تعالى أيضاً: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾.

إذن لقد أخبرنا الله تعالى بأن هناك ارتباطاً كبيراً بين ذلك المكان الذى كان يعبد فيه زكريا ومريم ربهما وبين المحراب. باعتباره ذلك المكان الطاهر الذى اختاره من أجل هذه الغاية الشريفة. ويبدو كذلك أننا فى الإسلام قد نقلنا المحراب كمكان عبادة من زكريا عليه السلام .. بدليل أننا قد وضعناه فى المساجد وأصبح كذلك علماً على اتجاه القبلة.

وبخلاف ما جاء بشأن المحراب أو المحاريب فى كل من قصة سليمان عليه السلام وزكريا ومريم.. هناك أيضاً ووفق ما أخبرنا به الله تعالى ارتباط ذلك المحراب بقصة داود عليه السلام. وإن جاء معناها فى هذه القصة الجديدة مخالفا لما سبق. إذ يقول المؤرخون والمفسرون أن المحراب فى قصة داود معناه القصر العالى الذى له أسوار عالية. بدليل قوله تعالى: ﴿إذ تسوروا المحراب» بمعنى أنهم حاولوا دخول القصر عن طريق أسواره وليس أبوابه.

وفى تفسير الإمام الألوسى قال عن أصل المحراب وتسوره فى قصة داود عليه السلام منقولاً عن ابن عبّاس: أن داود جزأ زمانه أربع أجزاء، يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ويوماً لجمع بنى إسرائيل يعظهم ويعلمهم أمور دينهم.

وكان اليوم المقصود بآية المحراب هو يوم عبادته، وفيه يحتجب عن الناس وينبه على حرس قصره ألا يدخلوا عليه أحداً.

وكان أن أرسل الله تعالى ملكين على هيئة بشر، ولما رأوا أن الحرس قد يمنعونهم من الدخول تسوروا المحراب، وعلوا السور ونزلوا إلى المكان الذى خصصه داود عليه السلام فى بيته للعبادة، وفوجئ داود بوجودهم ففزع منهم وخاف إذ هو يوم العبادة ولا يتوقع رؤية أحد من الشعب.

ولعله ظن أنهم قد اقتحموا بيته كى يقتلوه، عندئذ طمأنوه وطلبوا التدخل كى يحكم فيما جاءوا من أجله بشأن النعاج، وبعد أن قال داود رأيه اختفى الرجلين فجأة من أمامه وأدرك أن الرجلين فى الحقيقة ما هما إلا ملكين أرسلهما رب العالمين ليعلماه درساً فى أصول الحكم.

ولقد اعتبر كثير من المفكرين أن هذه القصة التى جاءت فى كتاب الله والتى ذكُر بها المحراب كانت امتحاناً من رب العالمين لنبيه داود لأنه تمنى على الله أن يكون فى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، كما سأل ربه أن يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم به من الفضل ويعطيه مثلما أعطاهم. (١)

** الكنوز .. التى يصعب حمل مفاتيحها:

هناك من الأماكن المشهورة التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز والتى تحمل إلينا المئات من المعانى والعبر والعظات، ذلك لارتباطها بشخصيات تستحق التوقف عند تاريخها طويلاً. ولعل من أشهرها ما ارتبط بالخزائن والكنوز على مدى تاريخ البشرية كله وصاحبها قارون الذى كان من قوم موسى ثم بغى عليهم.

ولقد اجتهد الكثير من المفسرين ومن المؤرخين من أجل تحديد شخصية قارون للتوقف على المزيد من ملامح حياته وقالوا فى ذلك: إن قارون المشار إليه فى هذه الآيات إنما هو نفسه «يصهار» عم موسى.

واختلاف الاسم يعود إلى اختلاف اللغة، ويقدم لنا الدكتور رشدى البدراوى دلائل على هذا التوحد فى هذه التسمية فيقول: إن يصهار عم موسى هو نفسه قارون بدليل أن قاموس الكتاب المقدس قال إن يصهار اسم عبرى معناه يضىء أو يشرق، وجاء فى تفسير القرطبى: أن قارون كانت كنيته المنور لوضاءته وجماله.

(١) قصص الأنبياء للثعالبى - مصدر سابق.

إضافة إلى ذلك فإن الجذر العبرى «قـرن» معناه أنار أو أضاء وأشع، واشتقاقاً منه قارون بمعنى الأنور أو المنور. هذا الاستخراج تحدث عنه بالتفصيل رءوف أبو سعدة فى كتابه «من إعجاز القرآن».

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الكنوز وضخامتها فى قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ من الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ﴾ الآية (٧٦) فى سورة القصص. وهذا دليل عظيم على ضـخامة هذه الكنوز التى حـفرها فى الأرض أو التى أقامـها داخل جدران بيته. وفيها وضع كل ما كان يملك من أموال وذهب وفضه.

وهناك أيضـاً من المؤرخين الذيـن توسعـوا فى حـديثـهم عن حـيـاة قـارون من أجل التوصل لمصدر تـضخم هذه الكنوز وكثرة أمواله. فـقالوا إن قارون كان أحـد شيوخ بنى اسرائيل وكان مـوالياً لفرعون فجـعله رئيس سخرتهم. ولعله كان يقـتطع لنفسه جزءاً من أجـورهم كمـا كان يفعل الخـولى من اقتطاع جـزء من أجر العـمال الذين يعملون فى عزبة الباشا أيام حكم أسرة محمد على.

وأضافوا: أن ثروة قارون قد زادت وأراد أن يبنى لنفسه قصراً، ورفض فرعون أن يقـيم هذا القصـر بجـوار قصـوره، كمـا رفض قـارون أن يكون هذا القصـر بأرض جاسان. حيث كان يسكن بنى إسرائيل. من أجل ذلك أقطعه فرعون أرضاً فى الفيوم فبنى على شـاطئ بحيـرتها هذا القصـر الضخم وبداخله هذه الكنوز العظيـمة. وظل يتعاون مع فرعون ضد أهله من قـوم بنى إسرائيل الذين أخذوا يحسدونه على ما هو فيه من هذا الثراء الفاحش.

ولقد أكد لهم أن هذه الكنوز إنما أوتيت على علم عنده..!!

ولقد عرف مـوسى بما صار إليه أمر قـارون فأرسل بعضًا من شيـوخ بنى اسرائيل ومن عقلائهم من أجل أن ينصحوه بألا يفرح بـالدنيا وينسى الآخرة. كما طالبوه بأن يحـسن كمـا أحسن الله إليـه ولكن بلا فائدة . وكـان جزاؤه أن خـسف الله به وبداره الأرض بما كان فيها من كنوز.

ويقال إن هذه الكنوز موجودة أسفل بحيرة قارون التى أخذت اسمها من قصته حيث كان يسكن إلى جوارها، ولم يغن عنه ماله ولا خدمه ولا حشمه على حد قول الدكتور رشدى البدارى ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله.

** الخزائن .. أشكالها وتاريخها:

قلنا من قبل إن الكنوز التى جمعها قارون وغيره من كبار الكفار على مدى التاريخ كان مكانها الخزائن. والكنوز أيضاً كانت هى الأخرى أماكن.. والخزائن وما جاء بشأنها فى كتاب الله تحمل أكثر من معنى.. منه ما ارتبط بالله تعالى ذاته، ومنها وما ارتبط بالسموات والأرض. وقد فسر لنا كتاب الله معنى كل من هذه الكلمات فى مواضعها وفق ما جاءت فى الآيات والسور.

إذن لدينا خزائن الأرض وخزائن الله ثم خزائن السموات والأرض، أما خزائن الله فمعناها وفق ما أورده معجم ألفاظ القرآن الكريم: مقدوراته التى استأثر بها وبعلمها من دون خلقه ومن شئونهم أيضاً، وجاءت هذه الكلمة كمكان مشهور فى كتاب الله فى قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الآية (٥٠) فى سورة الأنعام وباللفظ فى سور هود الآية (٣١)، وبذلك فإن الحديث عن الخزائن كمكان مشهور فى كتاب الله.. لا يشمل هذه الآية.. من منطلق أن خزائن الله يعلمها رب العالمين وحده .

وأما فيما يخص خزائن الأرض: فمعناها الأماكن الصالحة لتخزين الأموال بأنواعها من ذهب وفضة وأوراق.

وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الخزائن لها مواصفات خاصة تساهم فى تحقيق الأمان لما هو موجود بداخلها، وخزائن الأرض جاء ذكرها أيضاً فى سورة يوسف وفى قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ الآية (٥٥)، ومعناها أن يوسف عليه السلام قد طلب من حاكم مصرى الذى بعث إليه ليفسر له

أحلامه أن يكون هو المهيمن على مقدرات مصر بما فيها من خزائن المحبوب وغيرها من أجل إنقاذها وما حولها من بلاد أخرى من شبح المجاعة التى تنبأ بها هذا الحاكم.

وربما كان المقصود فى هذه الآية خزائن أو مخازن، الغلال والتى أشار إليها يوسف عليه السلام، هذه المخازن أو الخزائن كانت موجودة فى أكثر من مكان فى مصر فى ذلك الوقت.

وبخلاف ذلك هناك المقصد الثالث من لفظ خزائن كمكان مشهور فى كتاب الله وهو خزائن السموات والأرض، ويقول المفسرون أنها تعنى أرزاق الناس، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ولله خزائن السموات والأرض﴾.

وهناك بخلاف هذه المعانى الثلاثة معنى رابع لكلمة خزائن وهى خزائن رحمة الله. والتى ذكرها لنا رب العالمين فى كتابه العزيز وفى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾ الآية (١٠٠) فى سورة الإسراء واللفظ فى الآية (٩) فى سورة ص والآية (٣٧) فى سورة الطور.

ومعنى هذه الآية واضح لكل ذى عقل يفكر .. حيث يؤكد لنا رب العالمين أن بعض الناس لو كانوا يملكون خزائن رزق الله وسائر نعمه، لخافوا من الإنفاق، ولكنهم لا يملكونها أبداً. وهى دعوة لكل الناس من أجل الإنفاق فى الحلال من دون الخشية من الإقلال أو الفقر!.

** ذات العماد .. التى أهلكها ربنا:

ومن الأماكن أيضاً والتى ترتبط بقصص القرآن الكريم ما أشار إليه رب العالمين فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ الآيات ٦، ٧، ٨ فى سورة الفجر.

وعندما نقرأ هذه الآيات التى ارتبطت بذلك المكان المشهور وهو ذات العماد .. سوف نلاحظ أن الله تعالى قد حدثنا عنها مرتبطة بشخصيتين مهمتين فى التاريخ ألا وهما إرم وعاد .

ويقول عن ذلك المؤرخون والمفسرون أن عاداً المقصود فى هذه الآية هو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقد اختار الله تعالى اسم عاد لكى يكون اسم علم على القرية التى كانوا يقيمون بها والتى أقاموا بها أيضاً ذات العماد.

أما الشخص الثانى فهو إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وربما أيضاً كانت القرية التى كان يقيم بها بعض من قوم عاد اسمها إرم وبالتالى ارتبطت بتلك المبانى الشاهقة التى وصفها الله تعالى فى كتابه العزيز بأنها ذات العماد .

ويقول الدكتور أحمد شوقى إبراهيم أن بعض المفسرين قالوا: إن عاد إرم كانوا قوم من العماليق ذو قوة فى الجسم وبسطة فى الطول، كما كانوا يبنون مساكنهم على عُمد، وقالوا أيضاً إن تلك العمائر المقامة على عُمد فى عهد إرم، كانت فى الإسكندرية، وقال آخرون كانت فى دمشق، بينما يؤكد الدكتور أحمد شوقى إبراهيم أنها كانت بالأحقاف، استناداً على ما جاء فى كتاب الله فى قوله تعالى:﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قوم بالاحقاف﴾.

هذه الأحقاف موقعها بالجزيرة العربية خاصة فى جنوبها ما بين عدن وعمان وهو ما يعرف حالياً بحضرموت، وهى أرض رمال، والأحقاف فى اللغة هى رمال مرتفعة عن الأرض، لذلك كانت هناك مدينة إرم التى كانت أبنيتها على عُمد. وهناك من يقول إنهم كانوا أول قوم يبنون أبنيتهم بهذا الشكل، ويؤكد الدكتور أحمد شوقى كذلك إن المقصود في هذه الآية هم عاد الأولى والمسماة بعاد إرم وهم من العرب العاربة أو البادية. (١)

ولقد شغلت الأرم ذات العماد أذهان العديد من المفكرين فى الماضى والحاضر، ولذلك نجد أن هناك العديد من الآراء التى حاولت المساهمة فيما قيل بشأن هذا المكان.

ومما قالوه فى هذا السياق: أن إرم ذات العماد هى مدينة بناها شداد بن عاد أحد

(١) د. أحمد شوقى إبراهيم - مصدر سابق.

زعمائهم، وزعموا أنه بناها فى صحراء عدن فى ٣٠٠ عام، وفى رواية أخرى فى ٥٠٠ عام، وأن عمره كان ٩٠٠عام كما أنه بنى هذه المدينة بالذهب والفضة وزين حيطانها بالدر والياقوت!.

ويعلل الدكتور محمد بيومى مهران تعدد هذه الروايات وجنوحها للخيال بأن هؤلاء الرواة قد رأوا ضخامة آثار الفراعنة فى مصر ومبانى الآشورين والبابلين، ومن ثم رغبوا فى أن تكون مدينة عاد أكثر ضخامة من هذه الآثار، فكان الخيال الذى ينزل بكتاباتهم إلى مبالغات الأساطير.

ويؤكد الدكتور رشدى البدراوى أن قوم عاد كانوا قوم غلظة وقسوة وجبروت وفق تصوير القرآن الكريم لهم.